الافتتاحية

كان نجاح ندوة أدوماتو الأولى التي عقدت في ديسمبر ٢٠٠٥م حافزًا لهيئة التحرير من أجل عقد الندوة الثانية في مايو ٢٠١٠م، التي اخترنا لها أنا وزميليّ -بعد نقاش حثيث - موضوع: «الإنسان والبيئة في الوطن العربي في ضوء الاكتشافات الآثارية». ويظهر أثر البيئة بشكل جليّ كعامل رئيس ومؤثر في هجر المواقع السكنية وإعادة رسم طرق التجارة، تبعًا لتغير الظروف البيئية؛ ومن ناحية أخرى فقد تتسبب جودة الظروف البيئية وتوافر الموارد الغذائية في مناطق جغرافية محدودة في بدء صراعات بين الجماعات البشرية المختلفة؛ ولذا فقد وضعت للندوة الأهداف التالية:

١) إبراز العلاقة الوثيقة بين الإنسان والبيئة.

٢) التعرف على المؤثرات البيئية التي أسهمت في التأثير على المجتمعات عبر العصور.

٣) إبراز دور التقنيات العلمية الحديثة في تدعيم الدراسات الآثارية، التي تتناول علاقة الإنسان ببيئته، والتفاعل بينهما.

وما أن وصلت دعوة أدوماتو إلى الآثاريين والمختصين في مجال البيئة والإنسان، للمشاركة في الندوة الجديدة، وتعرفوا على موضوع الندوة ومواعيد انعقادها، ومواعيد تقديم الملخصات والأبحاث، حتى تنادى العلماء والباحثون في مختلف الجامعات العربية والعالمية، ومن الأوساط الأكاديمية والبحثية والعلمية في أنحاء العالم، ممن لهم عناية بآثار العالم العربي، للمشاركة في هذه الندوة؛ وأرسلوا إلينا ملخصات أبحاثهم العلمية؛ يؤملون المشاركة فيها. وقد تلقينا طلبات كثيرة من الباحثين والعلماء الآثاريين، يعرضون أوراق عمل تتناول موضوعات شتى في مجال الندوة.. وقد اختارت اللجنة العلمية للندوة الأبحاث ذات العلاقة العلمية بموضوع الندوة، والتي تنطلق من المحاور المحددة لها.

وواجهنا عملاً طويلاً وشاقاً، لكنه ماتع في الوقت نفسه، في التحضير لعقد الندوة، والتواصل مع الباحثين الذين تقدموا بطلباتهم للمشاركة فيها؛ ما بين طلب توضيح أو تعديل أو بيان، ثم في إجراءات وترتيبات القدوم والحجوزات اللازمة للضيوف، وترتيب المواعيد.. وشكلنا فريق عمل وصل الليل بالنهار وسابق الزمن؛ ليذلل - قدر المستطاع - الصعوبات والعقبات التي واجهتنا، لتكلل الجهود - بفضل الله - بالتوفيق، وانعقدت الندوة، كما هو مخطط لها، أيام ٢٠ - ٢٢ جمادى الأولى ١٤٣١هـ، الموافق ٤ - ٦ مايو ٢٠١٠م في مدينة سكاكا بمنطقة الجوف.

لقد كانت الندوة - بحق - دوحة علمية؛ تلاقحت فيها الآراء والأفكار، في تؤدة واحترام وتقدير للآخر، وتفاعلت الخبرات والمهارات البحثية من جميع الباحثين المشاركين، الذين عرضوا خبراتهم البحثية في مجال موضوع الندوة، فكانت أنموذجًا متميزًا للنمط العلمي المتعارف عليه في الأوساط العلمية العالمية؛ أفاد منها المشاركون وأعربوا عن سعادتهم ورضاهم عما تحقق لهم خلال مشاركتهم في هذه الندوة.

كما عقدت اللجنة العلمية ورشة عمل عقدت في آخر يوم للندوة بعنوان: «النشاط الآثاري في الوطن العربي، ودور الجمعيات الآثارية»، وكانت فرصة لإبراز نشاط الجمعيات الآثارية على مستوى الوطن العربي.

إن هيئة أدوماتو وهي تزف للقراء الكرام خبر نجاح ندوتها الثانية، وتعدهم بإذن الله بالعمل على إصدار أوراق العمل العلمية التي عرضت في الندوة في مجلد خاص ونشره وتوزيعه ليكون مرجعاً للمتخصصين والمهتمين، وتزدان به أرفف المكتبات العلمية في مختلف الجامعات والمراكز العلمية والبحثية ذات العلاقة في الوطن العربي ودول العالم الصديقة. ليكون مرجعاً لكل دارس ومهتم بهذا الموضوع الحيوي والمهم. الذي سيكون الأول في نوعه حتى الآن وتكون أدوماتو السباقة في تأصيله وتوثيقه ونشره.

وبهذه المناسبة، لا يسعنا إلا أن نسجل شكرنا وتقديرنا لسعادة الأستاذ فيصل بن عبدالرحمن السديري رئيس مجلس إدارة مؤسسة عبدالرحمن السديري الخيرية على دعمه المعنوي لإقامة هذه الندوة، ولسعادة الأخ الدكتور زياد بن عبدالرحمن السديري مدير عام المؤسسة على حماسته ودعمه المتواصل لهيئة أدوماتو، ومتابعته الحثيثة، وتذليله لكل ما واجهنا من عقبات في سبيل عقد الندوة في موعدها، وإنجاح فعالياتها، كما نشكر فريق العمل من العاملين في المؤسسة الذين لم يدخروا جهداً في المساعدة في تنفيذ برنامج الندوة على أتم وجه وأفضل حال.

كما نسجل هنا بكل تقدير الدعم المعنوي والمالي من كل من الهيئة العامة للسياحة والآثار والبنك الأهلي التجاري، بما ساعد على إنجاح عقد الندوة كما خُطط لها. ومن أجمل ما حدث هو تداعي الحضور من المناطق المجاورة من قبل المهتمين بموضوع الندوة من أساتذة أكاديمين وطلاب علم من أعضاء هيئة التدريس بقسم الآثار في جامعة حائل ومن القريات، فضلاً عن أبناء منطقة الجوف ذاتها.

وشملت موضوعات أوراق العمل المقدمة في الندوة عصور ما قبل التاريخ، والعلاقات المتبادلة بين البيئات المتشابهة والمختلفة، والتحولات النهرية وهندسة الري وخاصة لدى الأنباط، والنقوش وما تقدمه من أنماط حياتية لها علاقة بالعمق الزمني الذي تنتهي إليه.

***

معرض عالمي شهده آلاف من البشر؛ زرافات زرافات، كلهم يريدون أن يروا تراث أمة، حاول كثيرون أن يغبطوها حقها في العمق الحضاري، ويجعلوا سكانها قطعانًا في البادية، هم وأنعامهم، يجولون من شرقي الجزيرة العربية إلى غربيها ومن شماليها إلى جنوبيها، ولا يلقون ضوءاً إلا على جنوبيها، أو ما يعرف باليمن السعيد، الذي حظي بعروض عدة في معارض عالمية؛ وما ذلك إلا لارتباط أسطورة ملكة سبأ بنبي الله سليمان، عليه السلام، مع أنه لا يوجد ما يدل على وجود ملكات، على الرغم من آلاف النصوص التي وجدت في اليمن حتى الآن، والعكس صحيح؛ فإن نحو خمس ملكات وجدن في الشمال، ولكن دعوى أن أسطول نبي الله سليمان والذي كان يمخر عباب البحر الأحمر سهلت لهم الربط بين الحدثين، مما ينفيها الواقع العلمي.

لقد برزت المملكة العربية السعودية بعد طول غياب، في معرض اللوفر، لا بأساطير مفتراه ولكن بحقائق أثرية تعود إلى ملايين السنين حتى العصر الحاضر. إن أرض المملكة تعج بالحضارات من شرق إلى

غرب ومن شمال إلى جنوب؛ ارتبطت حضاراتها بحضارة وادي الرافدين إلى حضارة وادي النيل، وحضارة الأناضول وبلاد الشام، قبل أن تغوص إلى حضارة نجد والحجاز والأحساء وعسير والربع الخالي ودلمون، عندما كانت مسمى يشمل شرقي الجزيرة العربية بأكملها.

إن وجود المملكة في المعرض، وهي تحمل معها حضارة ملايين السنين، كان مفاجأة للعالم في مدينة العلم والمعرفة، مدينة النور، ما أكسبها فضلاً على فضل ونورًا على نور؛ لأن ما أتت به المملكة جاءت به من أرض الأنبياء: إبراهيم وإسماعيل وهود وصالح وشعيب ونبي قوم تُبَّع وخاتمهم محمد، الذي أُرسل رحمة للعالمين، لا لأمة واحدة كما حدث مع الأنبياء الآخرين، صلوات الله عليهم أجمعين.

لأول مرة، تخوض الهيئة العامة للسياحة والآثار غمار تجربة كهذه، وتوكلت على الله يقودها شاب، خاض الفضاء، فأحرى به أن يخوض غمار الثقافة والعلم والمعرفة، وحوله رجال ركبوا معه سفينة العلم والمعرفة، وسيطوفون بهذه السفينة إلى أسبانيا وألمانيا، وربما إلى أبعد من ذلك إلى أمريكا وروسيا.

بدأت الدول القديمة في الجزيرة العربية ومراكز الاستقرار فيها تتطاول وتستعرض تاريخها، وهذه فرصتها، فهذه الشويحطية وملايين سنينها، ودومة وآلاف سنينها، وملكاتها وانتصاراتها على ملوك آشور، وتيماء بشموخها واعتزازها بتاريخها العميق، فقد قاومت نبونيد، ملك بابل؛ وبعد أن ذبح الآلاف من أبنائها اضطرت أن ترضخ لمن غزاها. لقد كانت تيماء ملتقى العقائد وملتقى الاقتصاد وملتقى الصراع الدولي بين العراق ومصر، ومنشأ الممالك، وإذا كان لي أن أتصور نشأة دولة لحيان أن كانت في تيماء، فإنها نمت وترعرعت في «ددن « العلا حاليًا؛ إذ كان «ددن» مكانًا آمنًا لحياة دولة بين جبلين، حتى استطاعت أن تستولي على منطقة واسعة؛ من خليج العقبة شمالاً حتى حدود المدينة المنورة جنوباً وحتى مكة المكرمة امتداداً سكانياً.

إن التنقيب في كل من تيماء والعلا أظهر كنوزًا لا تقدر بثمن: تماثيل شامخة كتاريخها، ونصوصاً تفضي بمعلومات ثرة عن الديانة والاقتصاد والمجتمع، ومن حرار الشمال والجنوب وجبالها أصبحت الجزيرة العربية صفحة مفتوحة؛ تقصّ على العالم قصة الحياة على الأرض، ومن شرقي الجزيرة تقدمت أميرات ثاج بكل عبقهن وحليهن وأرائكهن؛ وجرهاء ميناء قرية الفاو، تلك المدينة التي عاشت ثمانية قرون تبني تاريخاً مجيداً، تلك المدينة التي غفت نحو ثلاثة آلاف عام، لتستيقظ على معاول المنقبين السعوديين من جامعة الملك سعود بالرياض، وبريادة أول سعودي مختص في الكتابات القديمة وفي التنقيب عن الآثار[1]، ومن قرية الفاو ظهرت نصوص دلت على الرفاهية التي عاشها المجتمع الفاوي؛ من معابد وفنادق وأسواق ورسوم ذات ألوان، يبرز بينها «باخوس»، معبود الخمر بين عنب ورمان، وهندسة متميزة راقية للمنازل والمقابر. ولم يتركوا الأرائك المذهّبة، والمجامر المزخرفة، وحليّهم وتوابيتهم من خشب الصندل. تلك هي الحضارة التي سيتمتع بها من يسعون إلى رؤية حضارة الجزيرة العربية، موئل الهجرات السامية إلى أرجاء العالم. فالشكر أجزله للهيئة العامة للسياحة والآثار على ما قدمته وعلى ما ستقدمه مستقبلاً.

رئيس هيئة التحرير

(١) إشارة إلى الباحث أ. د. عبدالرحمن الطيب الأنصاري، وذلك عام ١٣٧٢هـ.